انتبه إلى أنني دحلت في مرافعة تاريخية، قانونية، تدين سلوكه وسلوك أسلافه. مرافعة جاءت متأخرة عن ميعادها عشرين عاما. وأسأل نفسي لماذا غابت هذه الفصاحة لحظة احتياجي إليها، وكيف يمكن أن أعثر علي آلة الزمان، التي تعيدني إلى تلك اللحظة وذلك المكان، لأنصف نفسي، وبني جسي، من عنصرية رجل يشتغل جرسونا في إحدى الحانات.

يأبي المشهد أن يغادر ذهني، حتى وأنا أدخل المتجر واشتري اللعبة وأغادر السوق. أحس بالإعياء، فأبحث عن كرسي فارغ أريح فوقه جسمي، وأنعشه بفنجان من شراب ساخن.

تلوح لي عبر جدار المقهى الزجاجي، طاولة فارغة، فأقصدها ومعي لعبة الصغير. أضع اللعبة فوق الطاولة، وأفض عنها الغطاء والأشرطة، وأخرجها من علبتها، وأحاول أن أتسلى بها، علها تطرد الضيق الذي يملأ صدري لابد أن الولد سيفرح بها، فهي لعبة حديثة، من هذه الألعاب الألكترونية التي صارت تستقطب اهتمام الصغار. تشبه آلة حاسبة بحجم الكف، وقد حلت مكان اللوحة التي تحمل الأرقام، شاشة يظهر عليها رجال يتحاربون. تستغرقني اللعبة وأنا أحاول أن أفك رموزها. لأكتشف أنها معركة بين العساكر وأحد اللصوص، والفوز معقود لمن يجعل اللص يهرب من شباك ورصاص العساكر. «هاهم يلقنون أطفالنا درسا تربويا بديعا، يليق بمعاملات الناس في هذا الزمان» قلت لنفسي، وأنا أضع عقلي وقلبي في خدمة هذا اللص، وأحاول أن أهرب به من هذه الكمائن الكثيرة التي ينصبها له رجال الشرطة. اندمج في اللعب، فلا أنتبه إلى الجرسون الذي اخترق زحام الموائد، وجاء يقف بمحاذاتي. أسمعه يخرج صوتا لامعنى له، فأحس بالحرج وهو يراقبني ألعب بحماس مثل الأطفال. وبلهجة مهذبة، أسأله أن يحضر لي قهوة بالحليب. يهمهم بكلمات مضغومة بها نبرة احتجاج، فأظن أن احتجاجه جاء من طبيعة